تداوليّة اللّغة
بين الدلاليّة والسياق

عبد الملك مرتاض
جامعة وهران

الملخص

عالجنا في هذا المقال مفهوم التداوليّة (البراقماتيّة)، فحاولنا تأثيله معرفيّا وتاريخيّا معاً. وقد عوّلنا في ذلك على جملة من الكتابات النظريّة الأوروبيّة والأمريكيّة عن هذا الحقل، منها كتابات موريس ومالينوفسكي.

وقد حاولنا أن نعرف أوّل من استعمـــل هذا المفهوم في العربيّة، أثناء القرن العشرين، فلم نعرفه. كما استخلصنا أنّ هذا المفهوم هو من إجراءات القراءة التحليليّة السيميائيّة للمَلافِظ التي هي الوحدات الصغرى للنص، أو للخطـــاب. ولم نعـــدم تثمين أعمال العالم الأنتروبولـــوجي البريطاني مالينوفسكي إذ إليه يعود الفضل في تأسيس الوظيفة التداوليّة القائمة في المجتمعات البدائيّة (بالتناقض مع الوظيفة المرجعيّة التي كانت تجري في اهتمامات اللسانيّاتيّين). فهو الذي أثار مسألتين مركزيتين في التحليل التداولي: الأولى، فاعليّة (أو انجازيّة) بعض الأفعال في اللغة المستعملة؛ والأخرى، مسألة المرجعيّة التي لاتزال تثير كثيرا من النقـــاش. ولعلّ أهمّ ما تخـــرج به نظريّة التداوليّـــة التطبيقيّـــة في تحليـــل الخطاب هو مفهوم "المسكوت عنه".

الكلمات المفاتيح

تداوليّة – مَلفِظ – سياق – خطاب – مرجعيّة – إنجازيّة الأفعال – مسكوت عنه.

Résumé

Nous presentons dans cet article le concept de pragmatique, épistimologiquement et historiquement, et cela à travers un nombre d'écrits théoriques europeens et américains, dont les écrits de Malinowski et Morris.

Nous avons en premier lieu tenté, en vain, de connaître le premier utilisateur de ce terme en langue arabe durant le vingtièmme siècle. Nous avons aussi conclu que ce concept est issu des opérations de la lecture analytique et sémiotique des énoncés ; ces derniers étant les unités minimales du texte ou du discours. Par ailleurs, nous ne pouvons que valoriser les travaux de Malinowski, l'anthropologue britanique fondateur de la fonction pragmatique, qui prevalait dans les sociétés primitives (contrairement à la fonction referentielle qui était ciblée par les linguistes). Malinowski a, en outre, évoqué deux questions centrales dans l'analyse pragmatique: l'une concerne la perfomativité de certains verbes dans la langue utilisée, l'autre concerne la réferentialité qui soulève encore des débats. Il est à noter que l'élément le plus important qui peut être dégagé de la théorie pragmatique appliquée à l'analyse du discours consiste en la notion de l'illocutoire.

Mots clés

Pragmatique - énoncé - contexte - discours - réferentialité - acte de performativité - l'illocutoire.

Abstract

We present in this paper the concept of pragmatism from an epistemological and historical point of view taking into account the european and american theoretical background among which the writings of Malinoswki and Morris .

First, we have tried, though in vain, to determine the first user of this term in Arabic during the twentieth century. Then, we have concluded that this concept derives from the procedures of the semiotic analytical reading of utterances; these latter being the smallest units of the text or speech. Besides, we have considered the works of Malinowski, the british founder of the pragmatic function prevailing in the primitive societies (as opposed to the referential function that caught the attention of this linguists) as being valuable works not to be neglected. Malinowski raised two central aspects of the pragmatic analysis: namely the performativity of some verbs of the used language and the "referencial" notion that is still raising discussions. It is worth to mention that the essence of the pragmatic theory applied in discourse analysis is the notion of the illocutionary.

Keywords

Pragmatism - utterance - context - discourse - referentiality - performativity act - illocutionary.

تأثيل هذا المفهوم

لم يَتمّ استعمال التداوليّة، من حيث هو معنىً عامٌّ، في الثقافة اللاتينيّة، قبل سنة 1438 للميلاد. ويعود في أصله الأجنبيّ إلى اللغتين الإغريقيّة (Pragmatikos)، واللاتينيّة بالمعنى القانونيّ: (Pragmatika anctio). ولهذا المفهوم في الثقافة الغربيّة عدّة استعمالات: قانونيّة ــ وهو الاستعمال الأصلُ فيما يبدو ــ ثمّ فلسفيّة، ومنطقيّة، ورياضيّاتيّة، ثمّ أخيراً لسانيّاتيّة (دلاليّة)، وبلاغيّة (سياقيّة)، وسيمَائيّة (تأويليّة).

وقد زعم شارل موريس، لأوّل مرّة عام 1938[1] أن"التعريفات الكلاسيكيّة للسّمات تحتوي مرجعيّة ثابتة للمؤوّل والتّأويل. وإنّ البلاغة الإغريقيّة، واللاتينيّة، وكلّ النظريّة اللسانيّاتيّة للسُّفسطائيّينَ يمكن الإقرار بها أشكالٌ تداوليّة للخطاب"[2].

ولقد نشأ هذا المفهوم في أمريكا الشماليّة أواخرَ القرن التاسعَ عشرَ ومطلعَ القرن العشرين. ويعود الفضل في تأسيسه إلى شارل بيرس (1839-1914)، وذلك بين1865 و1872. وقد عرض بيرس فكرة مفهوم التداوليّة -أو البراقماتيّة بلغتها الأصليّة- على بعض أصدقائه، وكان من بينهم ويليام جيمس.وقد نشر بيرس من بعد ذلك مقالة ممّا ورد فيها "أن نعتبرَ: ما التّأثيراتُ العمليّة التي نعتقد أنّ موضوع تصوّرنا هو الذي يُنتجها؟ إنّ تصوُّر كلّ هذه النتائج هو التصوّر التامّ للموضوع"[3]. وجاء من بعده جيمس ويليام فطبّق هذا المبدأ البيرسيّ أوّلاً على الديانة، ثمّ على الفلسفة، وذلك سنة 1898، قبل أن يحوّله إلى نظريّة للحقيقة، سنة 1906[4].

وإنّا، بكلّ أسف، لا ندري مَن اصطنع من اللّغويّين العرب المعاصرين هذا المفهوم لأوّل مرّة في اللّغة العربية، أثناء القرن العشرين، نقلاً عن أصحابه من المفكّرين الأمريكيّين؟ ولا كيف اهتدى السبيلَ إلى إطلاق هذا الاستعمال الذي يدلّ من الوجهة المعجميّة على التعاوُر على شيء وأخْذِه بالدُّوَل[5] بحيث يقع التداولُ عليه: مرّةً يأخذه هذا من ذاك، ومرة يأخذه ذاك من هذا... ويُستعمَل هذا التركيبُ اللغويّ في العاميات العربيّة بوجه صحيح إلى يومنا هذا...

ونحاول في هذه الفقرة من البحث أن نعرض لأهمّ الأفكار والآراء التي وردتْ عن هذا المتصوَّر لنقدّمها في هيئة كتابة مقبولة، ما استطعنا، لدى القارئ العربيّ.

وإنّ أوّل ما نومئ إليه بهذا الصدد، أنّ هذا المصطلح هو من إجراءات القراءة التحليليّة السيّمَائيّة للمَلافِظِ التي هي الوحدات الصغرى للنّصّ، أو للخطاب. ويأتي هذا الإجراء -الذي قد يرقى إلى مستوى المفهوم- لاحقاً، أو ملازماً للقراءة التي تقوم على دلالة المعاني في النّصّ،

---

[1] Cf. Morris, Foundations of the Theory of Signs, (Encyclopédie de la Science Unifiée), Chicago,1938.

[2] ونلاحظ أنّ كتابات الغربيّين، في أغلبها، تُهمل الإشارة إلى جهود العرب البلاغيّة، وغير البلاغيّة في حقل علوم اللغة، إمّا جهلاً وإمّا تجاهلاً.

[3] Deledalle, in Encyclopædia universalis, Pragmatisme.

[4] Id.

[5] ابن منظور، لسان العرب، دول.

فتذهب في تحليل عناصر ذلك بعيداً، فتلتمس كلّ الاحتمالات التي يمكن أن يُشِعَّ بها المَلْفوظ (باصطلاح حازم القرطاجنّي) (Énoncé, Utterance).

وقد عدنا إلى آخر كُتب السيمائيّات والنقد الجديد صدوراً في فرنسا (نهاية القرن الماضي وبداية القرن الجديد) فتبيّن لنا أنّه يوجد اختلاف شديد في تمثّل هذا المفهوم ووظيفته، بل ربما في شرعيّته، أو عدم شرعيّته، أيضاً، ولو أنّ الاحتمال الأخير لا يَرِد إلاّ في بعض التَّمثُّلات القليلة على كلّ حال. ذلك بأنّ مِن المنظّرين لمَن يجعل منه ركنا مكيناً في تحليل النّصّ، أو الخطاب؛ وأنّ منهم لمَن يجعل منه مجرّد مجموعةٍ من "نُفَايات" الكلام، كما سنرى بعد حينٍ، يقع بها الترقيع! وأنّ منهم لمَن يبسّطه إلى أن يبلغ به مستوى مفهوم "السياق" المعروف في البلاغة منذ عهد أرسطو مروراً بالبلاغة العربيّة في عهودها الزاهرة. في حين أنّ منهم مَن يعقّد مِن أمره، ويعمّق مِن شأنه، إلى أن يُخضعَ استعماله في تحليل المعنى، فيُلحقه بالأدوات السِّيمَائيّة الجديدة. بل مِنهم مَن يبلغ به مستوى المنطق باعتبار أنّ هذا المفهوم، هو في أصله، من متصوَّرات العالم المنطقيّ شارل بيرس...

ويزعم جيرارد دليدال (Gérard Deledalle)، في الموسوعة العالميّة، أنّ معرفة الناس بمفهوم النزعة التداوليّة (Le pragmatisme, Pragmatism) قليلة. وأنّ الأمريكيّين، ومنهم بيرس (Ch. S. Peirce)، وجيمس (William James)، وديوي (John Dewey)(تأثّر ديوي ببعض براقماتيّة ويليام جيمس، على الرغم من أنّ جون ديوي حاول أن يؤسّس نظريّة الوظيفيّة، أو الآليّة...) هم ممّن نفخوا فيه مفهوم فلسفة رجال الأعمال، فاغتدى، بالقياس إليهم، كلُّ حقيقيٍّ نافعاً، وكلّ نافعٍ حقيقيّاً! فهل البراقماتيّة نظريّة الحقيقة (Théorie de la vérité) ؟ إن ذلك ما هو واردٌ في تمثّل ويليام جيمس[6].

البراقـماتيّة وتحليل الخطاب

إنّ الأبحاث التي نهض بها اللّسانيّاتيّون عن علاقة اللّغة بالمجتمع، وعلاقة المجتمع باللّغة، ومدى تأثير هذه في ذلك، وذلك في هذه، يضاف إليها الأبحاث التي أُجْرِيت عن بنية الكلمة ووظيفتها استندتْ إلى أعمال العالم الأنتروبولوجيّ البريطانيّ، البولنديّ الأصل، مالينوفسكي (Bronislow Malinowski) الذي أسّس للوظيفة التداوليّة للّغة في المجتمعات البدائيّة، (بالتناقض مع الوظيفة المرجعيّة التي كان اللّسانيّاتيّون يُؤْثِرونها بعنايتهم...) فلم يكن، فيما يبدو، مجرّد مصادفة أن يكـون تطورُ هذه الوظيـفة البراقماتيّة متصـاحباً مع تطوّر فلسفة "اللّغة العاديّة" (Langage ordinaire) التي بلورها أوستان في أعماله انطلاقاً من بحوث مالينوفسكي نفسه...[7]

وقد أثار دوني زاسلافسكي (Denis ZaslaWski) مسألتين مركزيّتين، في مقالة كتبها في الموسوعةالعالميّة، يجري نقاشهما في فلسفة اللّغة وما له صلة بالتحكّم في معاني الألفاظ وتحليل المَلافظ وإدراك أبعادها الدلاليّة.

---

[6] Cf. G. Deledalle, in Encyclopædia universalis, Pragmatisme.

[7] Pierre Encrevé, Sociolinguistique, in Encyclopædia universalis, t. 11, p. 79.

أولاهما: المســألة التي ظلّت مرتبطة باسم أوستان: وهــي مسألــة "فاعليّة"، أو "إنجازيّة" (Performativité) بعض الأفعال في اللغة المستعمَلة، أو قل ما يستعمله اللسان ويسخّره في التخاطب بهذه الأفعال. ويضرب أوستان للأفعال الإنجازيّة مثلاً بعبارة قول شخص تعرّض لحادث خطير، مثلاً، فاندقتْ ساقه، فعالجه الطّبيب المتخصّص في جراحة العظام حتّى شُفي وأمسى يمشي بصورة عادية... فلمّا رأى طبيبَه خاطبه: "أرأيت؟ إنّي أمشي!". فأوستان يرى أنّ هذا المَلفوظ لا يكون له معنىً مفهومٌ إلاّ إذا اتّخذ معنى: "أراني أمشي"، في الوقت ذاته. ويتساءل عمّا ذا كان يحدث لمعنى الكلام لو قال المريض حين رأى الطبيب: "أشكرك"، بحكم أنّ هذا الطّبيب كان قد عالجه من كسْر خطير حتّى استقامتْ رجلُه فأمسى ماشياً بكيفيّة مستقيمة، لا ظالعاً؟ فهل كان يمكن تمييز فعل اللغة، في هذه الحال –الفعل الذي أنتج هذا المَلفوظ– وفعلٍ آخر كانت وظيفته ستكون وصفيّة؟ ويجيب زاسلافسكي بأن ذلك غالباً لا يكون...

ونقول نحن: إنّ الشّكر يمكن أن ينهض بوظيفة دلاليّة لا تداوليّة، لأنّه يظلّ مقتصراً على تحديد معنىً لا يفهمه إلاّ المريض السابق، والطّبيب. ولا يؤدّي ملفِظ "أشكرك" على كلّ حال طبيعة الحالة المرَضيّة التي شُفِي منها المريضُ بفضل معالجة الطّبيب إيّاه...

بيد أنّنا نعتقد أنّ قول المريض السابق لطبيبه: "أرأيت؟ إنّي أمشي" !لا يعني بالضرورة أنّه كان مندقّ الساقين، أو إحداهما، إذ لو كان المريض في حالٍ متدهورة لا يستطيع المشي، أو أنّ الطّبيب ازْدَارَهُ وهو طريح الفراش غير مقتدِرٍ على القيام والمشي...فلما وصف له علاجاً ناجعا استطاع بعد حين أن يمشي على ساقيه، فلما رأى طبيبَه خاطبه مسروراً بشفائه ممّا كان فيه من مرض وبيل...

وببعض هذه الملاحظة نرى أنّ قدرة التداوليّة على التدخّل في إثراء معاني الكلام، والذهاب في تأويل المسكوتِ عنه، هي من الغنى والسّعَة ما يُثري الخطاب بتمكينه من إثمار قراءات لم تكن دلالة اللّغة البسيطة تحتملها، ولا قادرة على تمثّلها...

والمسألة الأخرى، وهي لا تزال تثير كثيراً من النقاش، هي مسألة "المرجعيّة". لقد اتُّخذ هذا المفهوم في سياق لم تبرح دائرته تتّسع في حقل التداوليّة بفعل فلسفة اللّغة حيث يعني، وبكلّ بساطة، أنّ اللفظ كذا، يحدّد الشيءَ كذا، للعالم الخارجيّ، أو **يُحيل عليه. وإذا كانت مسألة "المرجعيّة" تبوّأتْ كلّ هذه المكانة المهمّة في فلسفة اللّغة، ثمّ في اللّسانيّات**؛ فبما إدراكِها أنّ هناك عدّةَ أنماط مختلفة لإنجاز فعْل المرجعيّة...[8] أوليس من عدم المبالاة، ونحن نصرف الوهم إلى وظيفة المرجعيّة في سياق التداوليّة[9] تحديد اسم شخص باسمه كأن يكون سقراط مثلاً، أو بواسطة إحْدى الميزات الخالصة له كأن تكون "أستاذ أفلاطون"؟ إنّنا في المثال الثاني تعترض سبيلَنا سلسلة من المشاكل المنطقيّة، واللّسانيّاتيّة، ولا سيّما الفلسفيّة مما لا نجده في المثال

[8] Cf. Denis ZaslaWsk, Philosophie analytique, in Encyclopædia universalis, t.14, p. 478.

[9] عالجنا في بحث مستقلّ مفهوم المرجع، والمرجعيّة انطلاقا من تأمّلات دو سوسير، وانتهَينا إلى أنّ عبد القاهر الجرجاني استطاع أن يؤسّس لهذا المفهوم في كتابه «دلائل الإعجاز»...

الأول...وكلّ ذلك يجعل من هذه المسألة حقلاً واسعاً بحيث لا يعني المناطقة واللسانيّاتيّين والفلاسفة وحدَهم، ولكنّه قد يعني أيضاً بعض منظّري الأدب[10].

والحقّ أنّه لا يمكن التحكّم في استعمال مفهوم "تداوليّة اللّغة"، في مجال دلالة الألفاظ في الجملة، ومن ثمَّ دلالة الجملة في الخطاب، إلاّ إذا وقع المرورُ على معانيه المعقدة في الفلسفة البراڤماتيّة الأمريكيّة، لدى المفكّرين الثلاثة الذين جئنا على ذِكْرهم منذ قليل، خصوصاً. فقد أخذ هؤلاء عن بعضيهم بعضٍ ليكوّنوا، لدى نهاية الأمر، فلسفة خاصّة في فهم دلالة المعنى، انطلاقاً من الفلسفة الأمريكيّة التي تعيد دلالة الأشياء كلّها إلى قيمة المال، بحيث إنّ جيمس يشبّه دلالة المعنى في المعتقدات بدلالة الأوراق الماليّة حَذْوَ النّعل بالنّعل! فقد كان يري أن أفكارَنا ومعتقداتِنا يقع تداولُها في المجتمع كما يقع تداولُ العملة في الأسواق. وبعد تقبّلها أوّل الأمر تقبّــلاًأعمى،يقع، فيمابعدُ، فحْصُها وتحقيقها.ولكن في نهاية الأمر لا يكون التحقق من المعتقدات والأفكار إلاّ للاختيارات التي لا يُؤْبَهُ لها...[11] نّ النزعة البراڤماتيّة (Le pragmatisme) لا تُعنَى، في منظور بيرس، بالحقيقة بما هي كذلك، ولا بمعنى الحقائق الثابتة أو المسلّمة، ولا حتّى بالمعنى الذي يُفْضي إلى تدقيق ذلك وتتويجه، ولكنّ فكرةً مدقّقة ما (Une idée vérifiée)، هي التي تغتدي حقيقيّة، فتطبع نهاية بحثٍ ما بطابَع خاصّ. إنّها تحرّر التفكير من أجل غايات أخرى، من أجل بحوثٍ أخَر[12].

إنّ السؤال الذي يجب أن يطرحَه التداوُلِيُّ (Le pragmatiste)، في منظور جيمس، هو ذلك المتمحّضُ لمعاني الكلمات، ومعاني الأشياء معاً. غير أنّ بيرس لا يرى ذلك... فالتداوليّة، كما يكتب بيرس، "لا تقترح، بما هي كذلك، مذهباً ميتافيزيقيّاً، ولا أنّها تحاول تحديدَ حقيقة الأشياء. بل ليستْ إلاّ منهجا من أجل تقرير دلالة الألفاظ الغريبة، والمفاهيم المجرّدة"[13].

إنّ دلالة مفهوم ما ليست هي الشيء. بل إنّ دلالة المفهوم هي مفهوم آخرُ داخل نظام من المفاهيم. ولذلك فإنّ التداوليّة تدعّم النظريّة العقلانيّة التجريبيّة للمعنى.

واستُعمل هذا المفهوم لأوّل مرّة في الثقافة اللاّتينيّة سنة 1438 للميلاد. وهو يعود في أصله الأجنبيّ إلى اللّغتين الإغريقيّة واللاتينيّة معاً: (Pragmatikos) ؛ (Pragmatika sanctio). ولهذا المفهوم في الثقافة الغربيّة عدّة استعمالات: قانونيّة، وهو الاستعمال الأصلُ في اللغة اللاّتينيّة، فيما يبدو. ثمّ فلسفيّة، ومنطقيّة، ورياضيّاتيّة، ثمّ أخيراً لسانيّاتيّة وسيمائيّة.

وقد اصطُنِع في العربيّة النّقديّة المعاصرة على أنّه "تداوليّة"، في حين أنّا نشكّ في أنّه كذلك بهذه الصيغة التي ورد عليها في أصل الاستعمال الغربيّ، لأنّ صيغة هذا الاستعمال – (Pragmatique, Pragmatics) - لا تدلّعلىوجود ياء النزعة المعرفيّة (علميّة أو فلسفيّة أو أدبيّة)،

---

[10] Ibid .

[11] Cf. G. Deledalle, op.cit.

[12] Ibid.

[13] Peirce, in op.cit

والتي يطلق عليها النحاة العرب، بغير إقناع، "الياء الصناعيّة"؛ فالأجانب يصطنعون صيغة أخرى لما يقابل هذه الياء (أو اللاّحقة الثنائيّة على الأصحّ "ـيّة"):(Pragmatisme/Pragmatism)؛ فكيف نترجم، نحن العربَ، مفهومين اثنين، في أصليْهما، بصيغة عربيّة واحدة؟ وإنّا لا ندري ما ذا كان النقاد العرب المعاصرون يُطلقون على هذا المفهوم بالمعنى الثاني؟... ولذلك نقترح أن نطلق على مقابل المفهوم الأوّل "التداول" (أي تداول اللّغة) (دون لاحقة "ـيّة")، وعلى المفهوم الآخر المنصرف إلى النزعة المذهبيّة: "التداوليّة"؛ وذلك حتّى نطوّع العربيّة من أجل أن تتقبّل المفاهيم بالدّقّة المطلوبة، ما أمكن، فنميّز بين المعاني المتقاربة، والدلالات اللّطيفة، في لغتنا المعاصرة.

ومن عجبٍ أنّ السّيمَائيّين العربَ يعكسون هذا الاستعمال بالقياس إلى استعمال مفهوم سيمَائيّ آخر، فتراهم يقولون: "التناصّ"، مثلاً، مقابلاً للاستعمال الغربيّ: (Intertextualité, Inter-textuality) في حين كان يجب، في الحقيقة، أن يقولوا: "التناصّيّة". وإذن، فهم يصطنعون "التداوليّة "في مكان "التداول"، ويصطنعون"التناصّ"في مكان "التناصّيّة".

وإنّا نلاحظ ذلك دون أن نتجانف عن استعمال المصطلح السائد، في الوقت الراهن، حتّى لا نزيد الطّينَ بلّة! ودون محاولة إقناع أحدٍ من النقّاد واللّسانيّاتيين العرب المعاصرين الذين كثيراً ما يتعاملون مع صناعة المصطلح كما يتعامل الحاطب مع الْتِماس الحطب بليل!...

ويختلف المنظّرون الغربيّون في تعريف هذا المفهوم السيمَائيّ اختلافاً كبيراً، ففي حين يعرّفه معجم روبير على أنّه "دراسة السّمات في طبيعة الوضع"[14]، (أي كما هي في أصل الوضع)، يعرّفه روبير نادو (Robert Nadeau) على أنّه "جزء من السّيمَائيّة التي تشكّل توسعة كلٍّ من النّظْم، والدلاليّة[15]، ويتمحّض للعَلاقة بين المتحدِّثِ والرموز (الألفاظ) التي يصطنعها، (...) فهو يضع النُّقَط على حروف السياق الوارد في التّلْفيظ"[16]. في حين تعرّف هذا المفهومَ كاترين كربراط– أريتشيوني (Catherine Kerbrat-Orecchioni) بأنّه "دراسة العَلاقات القائمةِ بين السِّمَاتِ ومُستعمِليها"[17].

وعُجْنا على جان ديبوا وأصحابه فألفيناهم يتحدّثون عن هذا المفهوم بشيء من الاستحياء، وفي أسطار قليلة نأتي على ترجمتها كلّها في هذا المجاز، ملاحظين أنّ "المظهر البراڤماتيّ للغة

---

[14] وهذا نصّ عبارة التعريف بالفرنسيّة: "Étude des signes en situation"، Le Petit Robert ، Pragmatique.

[15] يطلق أساتذة الجامعات، واللّغويّون العرب المعاصرون على المفهوم الغربيّ "Sémantique" مصطلح " الدلالة ". وقد تابعناهم نحن زمنا على ذلك. غير أننا حين تأمّلنا هذا الأمر رأينا أنّ مصطلح "الدلالة" عاجز عن أن يحمل المعنى الغربيّ، وخصوصاً حين استعمل مجرّداً من الياء الصناعيّة (أو ياء النزعة العلميّة، كما نطلق عليها نحن)، لأنّ اللفظ الفرنسيّ ينتهي بلاحقة "Tique" الدالة على المذهبيّة، في حين أنّ اللفظ العربيّ "الدلالة" لا يحمل شيئاً من ذلك.
هذا أمر، والأمر الآخر أنّا حين نطلق على "Sémantique" "الدلاليّة"، ندّخر مصطلح "الدلالة" لنطلقه على مفهوم "Signification"، فنمحّض المعنى للفظ "Sens". وببعض ذلك نحلّ مشكلة ثلاثة مصطلحات كثيراً ما يقع الخلط بينها، بالإضافة إلى أنّا منحْنا مفهوم " الدلاليّة " شيئاً من حمولته المعرفيّة التي يتخذها في أصل اللّغة الغربيّة.

[16] R. Nadeau ; Vocabulaire technique et analytique de l'épistémologie, p. 500.

[17] L'énonciation, p.205.

يعني خصائص استعماله (الدوافع النفسيّة للمخاطِبين، وردود فعل المخاطَبين، والأنماط التي يتمّ بموجبها إخضاع الخطاب للنزعة الاجتماعيّة، وموضوع هذا الخطاب...)، وذلك كلّه ليقابل المظهر التركيبيّ (L'aspect syntaxique) (الخصائص الشكليّة للتراكيب اللّسانيّاتيّة)، والمظهر الدلاليّ (العلاقة بين الكيانات اللّسانيّاتيّة والعالم)"[18].

ويعني بعض هذا الكلام أنّ الدوافع النفسيّة -للمخاطِب والمخاطَب- التي تصاحب المظهر اللغويّ المعوَّم في القراءة التداوليّة تقابل لدى منظّرين آخرين ما يُطلقون عليه " الوضع " الذي يكونان فيه(La situation). وهذا المظهر يناقض ما يشيع في القراءة التي تُعنَى بالمنحى النظميّ (Syntaxique) الذي يُعنــى بالتحليـل القائـم علــى المظهرين النحويّ والتركيبيّ للكلام، والدلاليّ(Sémantique) الذي يُعنَى بالعلاقات بيــن العناصــر اللّسانيّاية والعالم الخارجيّ الذي تحيل عليه، وترجع في دلالتها إليه.

وأمّا فرنسيس جاك (Francis Jacques) فهو يتشاءم في تعريف هذا المفهوم وتحديد وظيفته التحليليّة في الخطاب، إذ يَعُدّه مجرّدَ " مُلاءمةٍ بين الألْقاء"[19].

بل إنّ بار- هيلل (Bar-Hillel)، وهو أحدُ مؤسّسي هذا المفهوم يرى أنّه لا يعدو كونه "نُفَاية تداوليّة، من أجل تعيين مزبلة نظريّة(Dépotoir théorique)، في حيث يمكن إلقاءُ كلّ المشكلات المعتاصة على الحلّ في النّظْم، والدّلالية. إنّ تداوليّة اللّغة المعاصرة، لا تجمع في ثناياها إلاّ طائفة من البحوث المنطقية/ اللسانيّاتيّة ذات الحدود الغامضة"[20].

لكنّه بالمقابل يقدّم تحديدات توضيحيّة لدلالات هذا المفهوم ووظيفته في تحليل الخطاب حين يرى، من ضمن ما يرى، في إحدى محاضراته التي ألقاها بإيطاليا خلال سنة 1968[21] أنّ التداوليّة ليستْ من قبيل ظاهرة التّأويل (للسّمات، والمَلافِظ، والنصوص...)، ولكنّها أيضاً "ارتباط أساسيّ بنظريّة الاتّصال، في اللّغة الطبيعيّة، للمخاطِب والمستمع، وللسياق اللسانيّاتيّ والسياق الماوراء- اللسانياتي..."[22].

وقد اختصّ إمبرتو إيكو مفهوم "تداوليّة اللّغة" في الدراسات التي كتبها عن "التّأويل" بوقفة دقيقة متوقفاً طويلاً، خصوصاً، لدى تنظيرات شارل موريس (التي استنبطها، في الحقيقة، من شــرل سانــرس بيرس، ملاحــظاً أنّ الفيلســوف والسيمائي الأمريكيّ شــارل وليــام موريس

---

[18] J. Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique (Pragmatique).

[19] اصطنعنا هذا اللفظ بوعي معرفيّ كامل، مقابلاً للفظ "البقايا"، لأنّه قد يكون أدلّ على المقام. فالألقاء، كما هو معروف في لغة الصفوة من الأدباء، جمع للفظ " لقىً "، وهو الشيء المطروح لهوانه، في حين أنّ معنى " البقيّة " من الشيء، لا يعني زهْدَ الناس لعدم غَنائه. ولذلك قال الشاعر مستعملاً اللّقى بهذا المعنى:

فليتَكَ حالَ البحرُ دونَكَ كلُّهُ وكنتَ لقىً تجري عليكَ السّوائلُ!

(لسان، لقا).

والنصّ المكتوب بين مزدوجين هو لفرنسيس جاك، في: Encyclopædia universalis, Pragmatique.

[20] Ibid.

[21] Cf. Umberto Eco, Les limites de l'interprétation, p. 386.

[22] Bar-Hillel, in ibid.

(Charles William Morris)(1901) هو أوّل من ميّز بين السيمائيّة والنظّم النحويّ، والدّلاليّة والتداوليّة. وحاول أن يَستَلّ البراقماتيّة (التداوليّة) مــن الدلاليّة بطريقــة شعرةٍ معاوية، فيقع الانفصام بينهما دون إحداث أيّ ضير بالأخرى. غيــر أنّ إيكو اعترض على تعريف شارل موريس الذي اجتزأ بأن قال: إنّ التداوليّة هي علم علاقات السِّمَاتِ بمؤوّلِيها، ملاحظاً أنّ تعريف موضوعِ علمٍ (س) مثل العلاقة بين (أ) و(ب)، يعني أنّ تعريف (أ) مستقلّ عن تعريف (ب)[23].

في حين أنّ موريس في كتابه "تأسيسات لنظريّة السّمات" (Foundations of the Theory of Signs) يثبت بوضــوح أن الشيء هو يكون سمة فقط حين، وبما هو مؤوّلٌ ومؤوَّلٌ معاً لسمةِ شيءٍ ما مختلفٍ...من أجل ذلك فإنّ السِّيمَائيّة لا تُعنَى بدراسة نوع خاصٍّ من الأشياء، ولكنْ بالأشياء العاديّة بما هي مُسْهِمةٌ في تكوين المُوَاسَمَة (La sémiosis)[24].

وقد عرّف موريس التداوليّة على أنّها "علم علاقة السِّمات بمؤوّليها"[25].غير أن إيكو يعترض على هذا التعريف تارة أخرى ...[26] ومما أورد إيكو مــن تمييز بين الدّلاليّة والتداوليّة أن "الدّلاليّة (Sémantique) (وهي فرْعٌ من السيمائيّة يعالج دلالة (Signification) السّمات) تُعْنَى أساساً بأنظمة الدّلالة، في حين أنّ التداوليّة إنما تعالج مسارات الاتّصال"[27].

والحقّ أن هذا التمييز بين المفهومين المتداخلين، أو المتقاربيْن، على غاية من الأهمّيّة، إذ يهيّئ لمن يعنيه أمر هذه المسألة في تعقيداتها سبيلاً واضحةً للتعامل مع هذين المفهومين السِّيمَائيّين؛ فالدّلاليّة غايتُها البحثُ في أنظمة الدّلالة، في حين أنّ التداوليّة تحاول أن تمضي إلى أبعد من ذلك حين تختصّ نفسَها بمعالجة كلّ المسارات الممكنة للغة الاتّصال بين متخاطبَيْن، أو متخاطبينَ.

وممّا يأتيه تطبيقاً إيكو استشهادُه بمثال قازدار[28] حين يأتي بعبارتين اثنتين: إحداهما دالّة، من الوجهة التداوليّة، على أنّ قائلها صبيّ صغير، وإحداهما الأخرى (وهي نفسُها بعبارة الكبار) لشخص راشد... وبما أنّ العبارتين لا يليق الاستشهاد بهما في الكتابة العربيّة لخصوصيّتهما في اللغة الأصليّة، فمن الأفضل أن نسوق نحن مثالاً عربيّاً كأن يكون في قول:

1. ويلي منك يا رجلُ!
2. أبي اشترى لي تفّاحة.

---

[23] Cf. Umberto Eco, op. cit., p. 288.
[24] Cf. Morris, Foundations of the Theory of Signs, Chicago, 1938. (Encyclopédie de la Science Unifiée).
[25] Ibid.
[26] U. Eco, op. cit., p. 287.
[27] Ibid., p. 291.
[28] Cf. Gerald Gazdar, Pragmatics, New York, Acadimics Press, 1979.

فالملفِظ 1 يدلّ على أن قائله امرأة بحكم لفظة "ويلي" التي تختصّ بلغة النساء أكثر من لغة الرجال. ولم نتوصّل إلى هذا الاستنتاج بفضل الدّلاليّة التي لا يعنيها ما وراء المَلْفِظ، ولكنْ بفضل التداوليّة التي غايتُها معرفة المسكوت عنه...

في حين أنّ الملفِظ 2 يدلّ، وبسهولة، على أنّ قائله ليس إلاّ طفلاً صغيراً، مع ما نعلم، من الوجهة الدلاليّة، أنّ الراشد إذا كان له أبٌ يمكن أن يشتريَ له تفاحة، فلا مانع من ذلك منطقيّاً؛ ولكنْ من الوجهة التداوليّة يصعب تأويل المسكوت عنه بغير أنّ المتحدّث هو طفلٌ صغير، لا رجل كبير... ولو قيل: "اشترى لي أبي بيتاً أسكنه" لكان الكلام شيئاً آخر، ولانصرف إلى رجل كبيرٍ أبوه غنيّ وهو لا يزال على قيد الحياة فابتاع له ما ابتاع...

ويتبيّن من خلال هذه الآراء التي بعضُها يرقى إلى مستوى التعريف، أنّ هذا المفهوم كان موجوداً، بالفعل والقوّة منذ العصور الموغلة في القِدم، وأنّه ظلّ مستعمَلاً في تحليل الخطاب، وأنّ البلاغيّين القدماء، العرب واليونانيّين[29]، كانوا يجتزئون بأن يطلقوا عليه "السياق" (ونلاحظ أنّ مفهوم "السياق" البلاغيّ تتنازعه نزعتان اثنتان: إحداهما "المرجع"، وإحداهما الأخرى "تداوليّة اللغة"...) أو ما في حكمه، أو ما يطلق عليه أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن عليّ السكاكيّ (المتوفّى سنة 626): "مقتضى الحال"[30]. غير أنّ الأقدمين لم يتعمّقوا في بحثه والذهاب به إلى أبعد الحدود الممكنة في انتشار التأوُّلات التي يمكن أن تنبثق عنه واتّخاذه إجراءً في تحليل المَلافِظ التي هي وحدات صغرى للخطاب، وقراءة النّصّ وفهْمه بالذهاب بعيداً في قراءته، عبْر حقل التّأويليّة الشاسع الأطراف. وكلاً ينتمي إلى حقل السِّيمائيّة.

ولذلك يرى بعض المنظّرين أنّ من الأنسب تصنيفَ الدراسات التداوليّة، كما يرى ذلك، پـاري(H.Parret) بحسَب وظيفة النّوع الوارد فيه السياق (Le contexte, context)، أو مقتضى الحال؛ وذلك بحكم أنّ هذا السياق هو مفهوم مركزيّ ومميِّز[31].

إنّ التركيب لا يجاوز قطّ الجملة، وأنّ الدّلاليّة (La sémantique)، في أوجهها اللّسانيّاتيّة والمنطقيّة، تحاول الاجتزاء بالجملة والتوقف لدى حدودها؛ في حين أنّ أبحاثاً تداوليّة عديدةً تقدّم تقنياتٍ تتمحّض لتحليل أكبر وحدات الخطاب. وإنّها للحالُ التي يمكن أن نطلق عليها "النحو النصيّ" الذي يشرئبّ إلى تبنّي الأشكال المستخلصَةِ من النصوص الكاملة التي وحداتُها المتشكّلةُ لم تعُدْ ألفاظاً، ولا حتّى جُملاً كبرى[32].

وبعد أن يبحث فرنسيس جاك في المناحي المختلفة، والمتنوّعة، لمفهوم تداوليّة اللّغة ينتهي إلى شبهِ يأسٍ من مسعى الساعين في حقله، فيختم مقالته، في الموسوعة العالميّة، بأنّ وضع

---

29 بار- هيلل لا يذكر العرب!

30 السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي، مفتاح العلوم، ص168، 169، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1983.

31 Francis Jacques, op. cit.

32 Id.

التّداوليّة، ككلّ الفروع العلميّة الجديدة والحيّة معاً، تظلّ متذبذبةً بين فرْطِ الشرف الرفيع الذي تطمح إلى أن تستأثرَ به، وفرْط التّدنّي[33] الذي لا تودّ أن تقع فيه.

في حين أنّ دكْرو وجان- ماري شيفر يَرَيان أنّه يحتدم جدال كثيرٌ، على العهد الراهن، من حول ضرورة تضمين مكوّن تداوليّ ما، أي "Un composant pragmatique" في الوصف اللّسانيّاتي (La description linguistique). غيـر أنّ هذا الجدال خامـره إشكال يمثّل في تعدُّدِ المعاني التي تُطْلَقُ على مصطلح "التداوليّة".

ويحصران، على سبيل التبسيط كما يقولان، مفهوم هذا المصطلح في أنّ التداوليّة بما هي دراسةٌ لكلّ ما ينصرف إلى معنى المَلْفِظ، تحرص على طبيعة "الوضع" الذي يُستعملُ فيه الملفِظ، وليس على مجرّد البنية اللسانيّاتيّة للجملة المستعمَلة. ويلحّ كلّ الباحثين منذ سنة 1960، بوجه عامّ، على البُعْد الشاسع لهذا المجال، كاشفين قصور السّعي الذي ينهض به الجهازُ اللّسانيّاتي؛ وذلك مثل ضرورة معرفة طبيعة الوضع الذي يحدّده مرجع ضمير "نحن"، في قولنا: "نحن نذهب"، وفِعْل اللّغة المنجَز في مثل قولنا: "إنّي آتٍ"، هل يُرادُ به إلى مجرّد الإخبار بالإتيان؟ أو إلى إعلان موعد؟ أم إلى تقديم وعِيد؟[34].

ويرى دكْرو وشيفر أنّه لا مانع من التفكير في أنّ هذه التداوليّة هي أجنبيّة عن اللّسانيّات، وذلك بحكم أنّها تُعنَى بما يُضافُ إلى ما هو خارجٌ عن جُمل اللّسان؛ وذلك على الرغم من أنّ الفَزَعَ إلى طبيعة الوضْع القائم للتّأويل يسيّره الجهازُ اللّسانيّاتي نفسُه[35].

يبقى أن ننبّه إلى أنّ إجراءات التداوليّة تُعنَى أساساً بفهم الجملة الواحدة من الكلام فتذهب في البحث عن طبيعة وضعها، انطلاقاً من العناصر المعجميّة، إلى المؤشّرات النّظميّة، أو المعطيات السياقيّة[36].

ولم نرَ فيما في مكتبتنا من مصادرَ ومراجع منظّراً سيمائيّاً عُني بمعالجة هذا المفهوم كفرنسيس جاك الذي أحلنا مراراً على المقالة الكبيرة التي كتبها في الموسوعة العالميّة، ثمّ مثل كاترين

---

[33] Id.

[34] Cf. Oswald Ducrot, Jean-Marie Schaeffer, Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, p.131-132.

ومثل هذا الشّأن الذي يتحدّث عنه المنظّران الغربيّان موجود، في الحقيقة، في كلام العرب، وهو موجود في كلّ كلام: في كلام الله، وفي كلام الناس. فقد ورد بعض ذلك في قوله تعالى مثلاً: ﴿سنَفرُغ لكم أيّهَ الثقلان﴾ (سورة الرحمن، الآية 31)، فقد ذكر المفسّرون على أنّ المقصود، في أغلب التّأويلات، هو التهديد والوعيد. فقد ذكر الزمخشريّ أنّه "مستعار من قول الرجل لِمَن يتهدّده: سأفرغ لك! يريد سأتجرّد للإيقاع بك من كلّ ما يشغلني عنك" (الزمخشري، تفسير الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، 4. 448)؛ وذلك أيضاً كما يقول قائل مهدّداً: سأفرغ لك! فظاهر الفراغ، من الوجهة الدّلاليّة، لا يعني إلاّ مطلق ترك كلّ شغل للتمحّض للنهوض بشيء، في حين أنّ المعنى التّداوليّ هو شيء آخر، كما رأينا. وكذلك قول القائل (وقد مثّل به المنظّران الفرنسيّان): "إنّي آت". ولو وضعا علامة التعجّب (!) بعد العبارة لأفادت التهديد والوعيد صراحة. ويكثر هذا في كلام العوامّ كأن تهدّد الأمّ ابنها حين يكثر من الاضطراب والتشويش فتقول له: "أنا آتية..." !

[35] Ibid., p. 132.

[36] Cf. Oswald Ducrot, Jean-Marie Schaeffer, op. cit., p. 501.

كرِبْراط-أوريتشيوني في كتابها الذي ظهر بعنوان: "التّلفيظ" (L'énonciation)؛ فقد كتبتْ فصلاً استغرق قريباً من عشرين صفحة في كتابها، عامِدةً إلى الشّقّ التطبيقيّ من خلال ذكْر جملة من الأمثلة التي توضّح وظيفة هذا المفهوم السّيمَائيّ، ليس في تحليل الخطاب فحسْبُ، ولكنْ في فهمه أيضاً...

وقد تحدّثتْ عن البُعد الثّلاثيّ لهذا المفهوم الذي لا يقوم إلاّ بالباثّ، والمستقبل، ووضْع التبليغ (Situation de la communication) بينهما[37]. وأثارتْ خصوصاً عن هذا المفهوم ما أطلقتْ عليه: "المسكوت عنه" (Illocutoire) في ظاهر اللغة، ونسْج الكلام. وضربتْ لذلك أمثلة لتشعّب التّأويل في فهْم العبارة اللّغويّة المطروحة بين الباثّ والمتلقي، بعبارة "أحبّك" التي حلّلها تحليلاً تداولياً ألان فينكِيلكْرُو (Alain Finkielkraut) في مقالة نشرها بإحدى المجلات الفرنسيّة المتخصّصة. يقول ألان فينكِيلكْرُو:

"إن عبارة "أحبّك" هي، بادئ ذي بدء، وضوحها النّحويّ؛ فهي صيغة إثباتيّة: إنّها تعلنُ صبابة ووجْداً، وتؤكّد رسيساً قويّاً؛ أم أليستْ علـماً علـى السعادة؟ وإنّ "أحبّك" هـي أيضا تطلّعٌ من أجل أن يصير همزُ المضارَعة "أ"[38] انطلاقاً من حبّي: لم أعدْ كما كنت، وأرغب في الاندماج في مملكة الجوّانيّة التي كان ينوء بها كاهلي وحدي. إنّه يوجد أيضاً في صيغة "أحبّك" سَوْرَةُ حبٍّ إصدار الأمر: أحِبَّـني، أو أحِبّيني! إنّي آمرُك أن تحبّني! لا بد أن تؤدّيَ ما عليك من دَين نحوي! فسواء عليّ أشئت أم أبيت، فلا بدّ أن تجعلَ منّي رَاويك: إنّه خطأ؛ إنّه جُرْحٌ ولّدته، ولا يكفّر عنه إلاّ قبولك بأن نشترك في أمرٍ واحد... وأخيراً، يجب أن يحدُثَ سمْعُ "أحبّك" في صيغة الاستفهام: فهل تحبّني أنت؟ إنّه سؤال مُرْعبٌ لأنّه يعني الدخول في الفردوس الذي يتعلق بجوابه"[39].

ويتحدّث رولان بارط عـن مسألة تداوليّة اللغة وتحليل الخطاب فيـرى أن العبارات الطّلبيّة يمكـن أن تتحول إلى عبارات خبريّة لكنْ دون أن تفقِد طبيعتها الطّلبيّة مثل قول القائل: " لا تدخّن!"، فإنّ صيغتها تعني بلغة تأدّبيّة: "يمنع التدخين"، أو "هنا لا يدخّن أحد". والصيغتان الثانية والثالثة هما في الحقيقة تعكسان معنى الصيغة الأولى. وهي صيغ يستعملها الباثّ للتأدّب مع المخاطب، فعوض أن ينهاه عن التّدخين هو شخصيّاً، وبطريقة الأمر والنهي، يعمِد إلى إخباره عن أنّ التّدخين حيث هو ممنوع!...

وكقول قائل: "اغسل الصحون"، فهذه الصيغة تعني: "آمرُك أن تغسل الصحون"[40]. وكذلك يمكن عرْض الملفِظ في صورة نصيحة وأنت تقصد إلى الأمر، أو في صورة وعْدٍ وأنت تريد إلى وعيد...

[37] Catherine Kerbrat-Orecchioni, op. cit.

[38] في اللغة الفرنسيّة يستعمل مقطع "Je" قبل الفعل المضارع، كما هو معروف لدى من يحذق هذه اللغة... فيقال فيما يقابل عبارة "أحبّك" "Je t'aime". في حين أنّ العربيّة تجتزئ بالهمز وحده للدلالة على ذلك.

[39] Alain Finkielkraut, Sur la formule "je t'aime", in Critique, n 348, mai 1976, p. 523-524.

[40] Greimas et Courtés, Sémiotique, dictionnaire raisonné de la théorie du langage, Illocutoire.

فهذا الشأن يشبه من بعض الوجوه، في البلاغة العربيّة، تجاهل العارف، ولكنّه ليس به على وجه التحديد...

وأوستان (Austin) هو الذي أسّس، عام 1960، تصنيف أفعال الكلمة في المَلفِظِ (باصطلاح حازم القرطاجنّي) من حيث هي في أيّ لغة من اللغات، إذ أيّ واحدٍ من الناس ينطق بجملة، فإنّه لابدّ أن ينجز ثلاثة أفعال متزامنة[41]. غيـــر أنّ هذه النظريّة لم يحاول أحد من المنظّرين بلورتها وتوضيحها وتطويرها فظلّت تراوح مكانها، ولم تتقدم خطوة واحدة، بل كلّ المنظّرين المعاصرين، من الفرنسيّين خصوصاً، (طودوروف ودكرو، ودكرو وشيفر وكاترين أورشيوني وجيرار دليدال، وحتى دوني ساسلافسكي...) ظلّوا يردّدون الأمثلة نفسَها التي ساقها أوستان عن الأفعال الفاعلة أو المنجزة، والأفعال الثابتة...وسيلاحظ القارئ غموض تقسيم أفعال اللغة التي حصرها في ثلاثة أنواع، ربما تتّضح بما ساقه من أمثال، أكثر مما تتضح بتعريف لها صارم دقيق، وهي في تقريرات أوستان:

1. الفعل الصِّيغيّ (Acte locutoire) الذي هو عبارة عن مَقصلَةِ الأصوات اللّغويّة وتركيبها، حيث يقع استحضارُ المفاهيم الماثلة من الوجهة النظميّة (Syntaxiquement)، بواسطة الألفاظ[42].

2. الفعل المسكوت عنه (Acte illocutoire) الذي هو عبارة عن إنجاز مَلفِظٍ من الجملة، بحيث يشكّل فيها، هي نفسها، فعْلاً على نحو ما (ضرْب من نقل العلاقات بين المتكلّمين): إنّي أنجز فعْل "وَعَد" وأنا أقول: "أعِدُ..."، وفعل السّؤال – أو فعْل "أسأل" على ما ذهب إليه أوستان–: "هل...؟" ويُطلق أوستان على مثل هذه الأفعال: "الأفعال العاملة" (Les verbes constatifs)، زاعماً أنّها تدلّ على نفسها بنفسها.

3. فعل الصيغة المُشبَعة (Acte perlocutoire)، وهو الذي يُصطنَعُ في نسْج الكلام لغايات بعيدة، بحيث إنّ المخاطَب يمكن أن لا يفهمَ كلّ ما يُلقى إليه على الرغم من حِذْقه اللّسانَ بامتياز. وكذلك إذا ألقينا سؤالاً على أحدٍ ما، فإنّ ذلك قد يعني أننا نقدّم له خدمة ما، أو أنّنا نُحْرِجه، أو أننا نُشعره بأن غايتنا من سؤاله لا تعدو كونَها تقديراً لرأيه...[43]

وقبل أن نعمد إلى تقديم بعض التطبيقات الوجيزة لحقل مفهوم تداوليّة اللّغة، نودّ أن نعرض خلاصة دقيقة كتبها دكرو وشيفر، فلقد ذهبا، انطلاقاً من الأبحاث والآراء والنظريّات الكثيرة التي كُتبتْ عن هذا المفهوم، وخصوصاً انطلاقاً من أعمال المناطقة الوضعيّين الجدد، إلى أنّ هؤلاء يميّزون بين ثلاثِ وجهاتِ نظر ممكنة عن وضع اللّغات (Langages) (طبيعيّة كانت أم اصطناعيّة).

[41] Cf. Oswald Ducrot, Jean-Marie Schaeffer, op. cit. , p. 782.

[42] Ibid.

[43] Id. p.783, voir aussi : Ducrot et Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage,pp. 428-429.

1. وجهة النّظر القائمة على النظّم النحويّ (Le point de vue syntaxique)، وهي التي تقوم على تحديد القواعد التي تتيح ، بحكم أنّها هي التي تنسّق الرموز الأوّليّة، تركيب الجمل – أو الصّيَغ (Formules) – السليمة.

2. الدلاليّة التي تسعى إلى تقديم وسيلة بها يقع تأويل هذه الجمل أو الصيغ، ووضْعها في حال توافق مع شيء آخر. وليس "هذا الشيء الآخر" إلاّ ما يستطيع أن يكون الحقيقة ، وإلاّ فهي صِيَغٌ أخرى من هذه اللّغة، أو من تلك.

3. تداوليّة اللّغة التي تصف استعمال صيغ المتخاطبين، ساعية إلى أن يقعَ تأثيرُ هؤلاء في أولئك. وبين هذه المستويات الثلاثةِ يوجَد نظام صارم يحكم علاقة بعضها ببعض: فكلاًّ ينهض بوظيفة بناء الذي يليه، ولكن ليس العكس[44].

إنّ تداوليّة اللّغة أدخل في أدوات التّأويليّة بحيث إنّ الكلمة التي تقال يراد منها أكثر من معنىً، وغالباً ما لا يراد بها إلى المعنى الوارد في ظاهر الكلام، أو يتّخذ الكلام الوارد، على الأقلّ، قابليّة تأويليّة لتوليد كلام مسكوتٍ عنه. فكأنّ مبدأ " المسكوت عنه "، في قراءة النّصّ وفهْمه، هو مفتاح التداوليّة اللّغويّة، بالمفهوم المبسّط. ومثل هذه الخاصيّة التي تتمتّع بها هذه النظريّة تجعل منها أداة شديدة الفعاليّة لاستكشاف حقول من القراءة لا تنتهي حدودُها، ولا تنغلق آفاقها. وعلى أنّه لا ينبغي أن ينزلق الوهم إلى ما يطلق عليه "استعمال النّصّ" من حيث هو إجراء قد يكون موازيا بدرجة أدنى لمفهوم "تأويل النّصّ"...

أرأيت أنّه حين يقال مثلاً: "ممنوع التدخين هنا"، أو "لا يدخّنُ هنا"، فإنّ ذلك قد يعني أنّ المتكلّم يقصد من وراء إرسال هـذا المَلْفِظ إلى منع التدخين بطريقة إيحائيّة... ومثل هاتين العبارتين قابلتان للتوليد والإخصاب مثل:

– لا تدخّنْ! (وهو منْع مباشر هنا، لو قيل في الأصل كذلك لقلّل من نشاط التّأويل التداوليّ)؛

– المكان ضيّق، وسيُفضي التدخين إلى الاختناق، وإزعاج المتواجدِين في هذا المكان والتنكيد عليهم؛

– يوجَد مريض، بهذا المكان الضيق، لا يتحمّل أبداً دخان التبغ، وقد يُفْضي ذلك إلى تسبيب اختناقه وإيذائه؛ – المكان في غاية الاحترام بحيث يغدو التدخين خرْقاً لتقاليد قائمة، أو تمرُّداً على قيم ثقافيّة أو دينيّة سائدة (مدرسة، مسجد، إلخ).

فاجتزأ المتكلّم بوجه واحدٍ من التعبير وسكت عن الباقي لاعتقاده أن المخاطَبَ يفهم قصده...

ويلاحظ رولان بارط أيضاً عن إلقاء الأسئلة بأنّه شأن لا يكون دائماً، في الحقيقة، من أجل التطلّع إلى المعرفة، أو الدلالة على جهل المخاطِب، أو التعبير عن نقصٍ في المعلومة لديه،

[44] Cf. Oswald Ducrot, Jean-Marie Schaeffer, op. cit., p. 776.

ولكنّه قد يكون لمجرّد حبّ الامتلاءِ المعرفيّ، كما يحدث في كثيرٍ من المساءلات التي تُطرَحُ على مُحاضرٍ بعد أن ينتهيَ من إلقاء عرْضه[45].

كما أنّ نصّ السؤال الذي يلقيه أيّ شخص على أيّ شخص آخر في شارع، أو في أيّ مكان آخر، قد يكون مجراه الأمر، بغير طريقة الأمر، (وكأنّه ما يطلق عليه في البلاغة العربيّة دون أن يكونه على وجه التحقيق: "أسلوب الحكيم" الذي هو في الحقيقة يتمحّض للأجوبة التي تأتي على غير مراد الأسئلة لمعاملة السؤال على ظاهر الكلام...)؛ أرأيت أنّ السائل إذا سأل عن أيّ ساعة هو من اليوم، موجّهاً الخطابَ إلى آخر: "كم الساعة الآن؟" فهو إنّما يريد أن يقول ذلك بعدّة صيغ تجري مجرى السؤال، مسكوتٍ عنها:

– إنّي إنّما أريد أن تخبرني، إن شئت، في أيِّ ساعة نحن الآن من النهار؟

– أرغب في أن أعرف كم الساعة الآن، لحاجتي إلى ذلك، فهل أنت مُخْبِري؟

– ساعتي معطّلة، ويعنيني أن أعرف الوقت لأنّ لي موعداً مهمّاً أحرص على أن لا أخلفه.

– تأخّرتُ في الوصول إلى العمل وأخشَى أن يتسبّب لي التأخّر إزعاجاً فأنا أسأل عن الساعةِ لعلّ الوقت لا يزال فيه مندوحة، فأتخلّص مما أنا فيه من قلق وإشفاق؛

– أنا على تأهّب للسّفر وتعطّلت سيّارة الأجرة التي اتخذتها إلى المطار، فأنا لا أعرف كم بقي من الوقت لإقلاع الطّائرة؛

– نسيت ساعتي في البيت، وأنا أريد أن أدرك ابني الصغير وهو يخرج من المدرسة لكي أصطحبَه إلى البيت .

– وقد تعطّلت ساعتي فجأة، فأنا أحرص على مشاهدة مباراة رياضيّة هي على نحو كبير من الأهمّيّة... ومعرفة الوقت قد تساعدني على التحكّم فيما يفصل بيني وبين بداية جرَيانها من زمن...

وهلمّ جرّاً.

وكثيراً ما يفزع أيّ من النّاس، حتّى في الحديث اليوميّ العابر، إلى تداوليّة اللّغة، دون أن يدريَ أنّه يأتي ذلك؛ مثلُهُ مثلُ السيد جوردان في إحدى مسرحيّات موليير الذي ظلّ طول عمره يتحدّث النثر، ولم يكن يعرف أنّه كان يتحدّث النثر...! فقد كنت أتحدّث يوماً مع أستاذ أريب في جامعة وهران عن البلاغة الشعبيّة، فانتهى بنا الحديث إلى أنّ زوج فلاحٍ أرادتْ أن تتدلّل على بعلها، فألقتْ إليه بطلبٍ ملفوف في صيغة ذكيّة قائلة: إنّ أسْورتي التي ترى هي خفيفة، وبالية، وغير جميلة الشّكل؛ وإنّي أتطلّع إلى أن أبيعها، وأشتري عوضاً عنها بما هو أثقل وزناً، وأجمل شكلاً...

فلم يكن من بعلها إلاّ أن أجابها:

– اقطِفي التّينَ من تحتُ!

[45] Cf. R. Barthes, Ecrivains, Intellectuels, Professeurs, in Tel Quel, p. 10. Voir aussi, Alain Finkielkraut, op. cit., p. 213.

فلقد فهمَها الفلاّح وأراد أن يقطعَ عليها الطريق بما يعني أنّه غير متأهّبٍ لأن يمنحها فلساً واحداً، فلْتقنَعْ بما لديها وتستلمْ إلى اليأس المُريح! فهذه العبارة التي أجابها بها قد يؤدّي معناها عدّة صيغ مسكوت عنها، مثل:

- لا تشرئبّي، يا هذه، بعنقكِ إلى قطف التين من أعلى الشجرة، لأنّ ذلك سيكلّفكِ الصعودَ والتسلّق في أغصانها، ويجشّمكِ التعلّقَ الشاقّ بفروعها. وفي ذلكِ تعبٌ شديد لك، فهلا اجتزأتِ بما لديك واسترحتِ، وأرحت؟

- إنّكِ ستتْعَبين جدّاً لو تقطِفين التين من أعالى الشجرة، أم أليس لك مندوحةٌ في الأسافل؟

- إنّكِ تسعَيْنَ إلى شيء لن يتحقق لكِ أبداً، لأنّي لا أملك المال الذي يمكّنني من أن أشتريَ لكِ به أساورَ أثقل وزْناً، وأجمل شكلاً، أم نسيتِ أني من الفقراء؟!

- أنا حقّاً غنيّ، وكنت قادراً على أن أحقق لك رغبتَك... لكنّك تعلمين أنّي شحيح!

- أنتِ لستِ من الجمال والذكاء، والفتنة والإغراء، ما يَحملني على أن ألبّيَ لك ما تطلُبين؛

- إنّ الطمع فيما لا يجوز يُشْقي... ولو قنَعتِ بما أوتيتِ لكنتِ أسعدَ ممّا أنت عليه...

- ما كان ينبغي لك أن تنظري إلى مَن فوقك من النساء فقط، بل انظري أيضاً إلى مَن دونك منهن؛ فما أكثرَ الفقيرات اللواتي لا يستطعن التحلّي بأساور الحديد، فبلَهَ الذهبَ! أفتَشْقَيْن وأنت متحلّية بالنُّضار...؟!

وواضحٌ أنّ الفلاّح لم يكن يقصد بكلامه ظاهرَه، وهو قطف التين من أسافل الشجرة، فربما كان الموسم موسمَ شتاءٍ أصلاً؛ وإنّما أراد إلى ما وراء الكلام ممّا هو مسكوتٌ عنه، ومع ذلك فهمتْه حليلتُه فلم تجبْه ببنت شفة...

ولعلّ من أهمّ ما نستخلص من تقديم هذه النظريّة الجديدة، القديمة معاً، في تحليل الخطاب، وفي فهمه قبل تحليله:

أوّلاً. إنّ هذه التقنيّة لا تجاوز عنايتُها، في منظور السيمائيّيــن واللّسانيّاتين، إلىما بعد الجملة؛ فكأنّهم يُلحقونها[46] بوظيفة اللّسانيّات، غير أنّها لا تعنى إلاّ بالدلالة الخارجة عن نطاق اللسانيّات وإن سخّرت جهازها، وكأنّها تُعنَى أساساً بتحليل المَلافِظ داخل الجملة فتُسعف الدلالة بجهاز إضافيّ لإدراك المعاني الكامنة في هذه المَلافظ. غير أنّ النصّ الأدبيّ، في رأينا، أي الخطاب بوجه عامّ، لا ينبغي له أن يتعاصَى على تسلط هذا الجهاز التحليليّ لإثراء العطاء التداوليّ، وتوسعة القراءة بتمديدها إلى ما لا نهاية من القراءات... فليس الخطابُ بعدُ إلاّ سلسلةً من الملافظ، أو الجمل المتتابعة في بناء نسْج الكلام... وعلى المخاطَب أن يكون لحِناً بقصديّة المخاطِب، وإلاّ استحال الكلام إلى عبث...

ثانياً: ضرورة توافر المعرفة السياقيّة[47] - بالإضافة إلى مؤشّرات النظْم - للنّصّ المطروح بين المخاطِب والمخاطَب، ولا سيّما إذا كان نصّاً مقْولاً قبل لحظة التحليل الذي الغاية منه إدراك

---

[46] Cf. Oswald Ducrot, Jean-Marie Schaeffer, op. cit.

[47] Id.

المعاني القريبة والبعيدة الكامنة في الملافظ. ونحتاج في مثل هذه الحال إلى قيم تظاهرنا على الحكم بأنّ النّصّ مُحتاج لأن يُفهم: إلى استعمال المكوِّنَيْن الاثنين المتلازمين: الدلاليّة والتداوليّة، أو الدلاليّة مع التداوليّة، أو الفصل بينهما بحيث يكون كلٌّ منهما غيرَ مرتبطٍ بالآخر[48]... على أن يظلّ كلّ منهما خدَماً لتأويل الملفِظ المطروح... إنّ كلّ هذه أمور تحتاج إلى معالجة لطيفة، وإلى فهْم عميق للمسألة...

ثالثاً. الحُكْم بأنّ التداوليّة اللّغويّة وُجِدت في الخطاب منذ الأعصار الموغلة في القدم؛ وهي تتّخذ لها أشكالاً من الخطاب مرتجلة، تكمن في كيفيّة طرْح الخطاب المنطوق، كما تمثّل في كيفيّة طرْحه مكتوباً في علاقة الباثّ بالمستقبِل، تبعاً للوضع النفسيّ، ولطبيعة السياق الذي يُفضي إلى التفاهم بينهما... خذْ لذلك مثلاً الكلمة المعروفة في التراث العربيّ والتي كتبها أحد الخلفاء لأحد الوُلاة وقد بلغه عنه ما رابه في أمره: "أراك تقدّم رجْلاً وتؤخّر أخرى؛ فإذا جاءك كتابي هذا فاعتمدْ على أيّهما شئتَ!" .

فإذا لم يعرف المحلل سياق هذا الكلام: لا يستطيع أن يَقضيَ بأنّه هل ورد في معرض التهديد والوعيد، أو معرض الإخبار باختيار الفعل الذي يباحُ للمخاطَب أن يفعله؛ ذلك بأنّ الكلام بعد أن وقع صدرُه في معرض "تجاهُل العارف" (لِمن كان يعرف السياق): (أراك تقدّم رجْلاً وتؤخّر أخرى)، انتقل إلى أسلوب آخر إنشائيّ استعمل الأمرَ ففتَح المجال واسعاً لكلّ قراءة تداوليّة (فاعتمدْ على أيّهما شئتَ!). وأدوات الترقيم، بحكم أنّ هذه الملافظ ليست منطوقة ملقاةً للمخاطَب، ولكنّها مرقومة مكتوبة، يمكن أن تنهض، هنا، بوظيفة تداوليّة بحيث إنّ الذي يكتب هذا النصّ إذا وضع في آخره نقطة (.) كان المعنى غير الذي يكون فيه إذا ما وضع في آخره علامة التعجّب (!). وهذا تحليل تداوليّ عَجِلٌ لهذا النّص:

1. إنّ المخاطِب (L'interlocuteur) سكت عن كثير من التفاصيل لتيقّنه بأنّ مخاطَبه يعرفها، فالسياقُ هنا هو مفتاح الفهم للمَلافظ المطروحة بين الباثّ و"القارئ" (وذلك بحكم أنّ الأمير لم يسمع هذا الكلامَ من الخليفةِ فاهُ إلى فِيهِ؛ ولكنّه تلقاه عنه مكتوباً؛

2. ما ورد في الخطاب من ذِكْرِ لتقديم رجْلٍ وتأخير أخرى، لا يعني ذلك الفعلَ القائم على النهوض بحركة تشبه فعْل سيزيف، في حقيقة الأمر؛ بل إنّ ذِكْرَ ذلك مجرّدُ تمثيل؛ إذ المراد به إغراء المخاطَب واستفزازه إلى ضرورة اتّخاذِه موقفاً واضحاً وحاسماً من راهن قضيّةٍ معهودة بين المتخاطِبيْن؛

3. ليس الاعتمادُ على إحدى الرّجلين، نتيجة لذلك، وارداً في هذا الكلام بمعناه الحرفيّ؛ فالدّلاليّة هنا تنزاح لتذرَ مكانها للتداوليّة؛ وإلاّ فقد كان الأمر ينصرف إلى: هل يعتمد المخاطَبُ في مشيه على الرِّجْل اليسرى، أو على اليمنى في التنقل إليه، لو أريد بهذا الملفظ إلى دلالته اللسانيّاتيّة...

---

[48] Catherine Kerbrat -Orecchioni, op. cit., p. 216.

4. كان يمكن للمخاطِب أن يخاطِب هذا الأميرَ المتردّد في تأييده بكلام أكثر وضوحاً، وأشدّ تفصيلاً، لو أنّه كان يعتقد أنّه يحتاج إلى ذلك... فلمّا علم أنّ الأمير المتردّد يفهم الوضع السياقيّ لعلاقتهما، عمَد إلى التعويل على كلام آخرَ لا علاقة له بما بينهما، ومع ذلك أدّى الوظيفة التداوليّة بوجه أقوى...

5. نلاحظ أنّ فعل الأمر هنا ليس المقصودُ به أمرَ المخاطَب بالاعتماد على أيٍّ من رجليه شاء، بمقدار ما هو نصيحة له بضرورة الاعتماد على حسْم أمره، وقطْع تردّده.

6. إنّ المسكوت عنه في هذه الملافظ، هو التهديد الملفوفُ الذي تأويله:

أ. بلغني أنّك لا تبرح متردّداً: أتكون في صفّي، أم تكون في سَوائِه، وأنا أريدك أن تقرّر الأمر في هذه السيرة على وجه العجَلة، لأنّ الظّروف لا تسمح بالانتظار إلى ما لا نهاية، وأنا لنْ أنْظِرَكَ، بعدُ، إلاّ قليلاً.

ب. كأنّك، أيّها الرجل، لا تزال تستهين بشأني، وتستخفّ بمكانتي؛ بحيث كأنّك ترى أنّ خصميَ أقوى منّي شكيمة، وأعظم شأناً؛ فأنت تخشى إن التحقتَ بي حدث لك ضيْرٌ من اتخاذ الموقف، ولحِقَكَ أذىً من إعلان الرأي.

ج. بل إنّي أقوى شكيمة مما تظنّ، وأرفعُ مكانة مما تعتقد، وأمضى عزْماً مما تتوهّم؛ ولذلك فأنا آمُرُكَ -من باب النصيحة إن شئت، ومن باب الوعيد إن شئت أيضا- بأن تقفَ معي فيما أنا فيه، وإلاّ حصل لك منّي كلّ مكروه...

المصادر والمراجع

باللغه العربيّة

ابن منظور، لسان العرب.

باللغة الأجنبيّة

Barthes, R., Ecrivains, Intellectuels, Professeurs, in Tel Quel.
Dubois, J., et autres, Dictionnaire de linguistique.
Ducrot et Todorov, Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage
Ducrot, Oswald, Jean-Marie Schaeffer, Nouveau dictionnaire encyclopédique des sciences du langage.
Eco,Umberto, Les limites de l'interprétation.
Encyclopædia universalis.
Finkielkraut, Alain, Critique, n 348, mai 1976.
Greimas et Courtés, Sémiotique, dictionnaire raisonné de la théorie du langage.
Gazdar,Gerald, Pragmatics, NewYork, Acadimics Press 1979.
Kerbrat-Orecchioni,Catherine, L'énonciation.
Le Petit Robert.
Morris, Foundations of the Theory of Signs, Chicago, 1938. (Encyclopédie de la Science Unifiée).
Nadeau, R. ; Vocabulaire technique et analytique de l'épistémologie.
Encrevé, Pierre, Sociolinguistique, in Encyclopædia universalis.